



القاعدة الحادية والأربعون

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة لها أثرها الإيماني والتربوي لمن عقلها وتدبرها.
وهذه القاعدة القرآنية المحكمة تكررت بلفظ قريب في عدد من المواضع، كما
تكرر معناها في مواضع أخرى.

فمن نظائرها اللفظية المقاربة قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُّصِيبَةً قَدَّ أَصَبْتُمْ
مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:
١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء:
٧٩]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ...﴾ [القصص: ٤٧].

وأما الآيات التي وردت في تقرير هذا المعنى فكثيرة جداً، ومن ذلك قوله سبحانه:
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْذِرُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي
الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وكقوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ
وَالْبَحْرِ يَمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]،
وقال جل وعلا: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ

لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢] في ثلاث مواضع من كتاب الله ﷻ. ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ -ملخصاً ما دلت عليه هذه الآيات الكريمة بتلخيص العالم المتتبع المستقرئ لنصوص القرآن الكريم-: «والقرآن يبين في غير موضع: أن الله لم يهلك أحداً ولم يعذبه إلا بذنب»^(١).

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآيات الكريمة دلت عليه أيضاً نصوص من الوحي الآخر، ألا وهو السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، ومن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ -في الحديث القدسي العظيم- الذي يرويه عن ربه تعالى قال الله ﷻ: «إنما هي أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيكُم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»^(٢).

وفي صحيح البخاري من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت...» الحديث^(٣).

وفي الصحيحين: لما سأل أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّبِيَّ ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، قال له عليه الصلاة والسلام: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر

(١) مجموع الفتاوى: (٤٢٤/١٤).

(٢) صحيح مسلم ح (٢٥٧٧).

(٣) البخاري ح (٦٣٠٦).

الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(١).

فتأمل في هذه الأحاديث جيداً! فَمَنْ هو السائل؟ وَمَنْ هو المجيب؟ أما السائل فهو أبو بكر، الصديق الأكبر الذي شهد له النبي ﷺ بالجنة في مواضع متعددة، وأما المجيب فهو الرسول الناصح المشفق صلوات الله وسلامه عليه! ومع هذا يطلب منه عليه الصلاة والسلام أن يعترف بذنوبه، وظلمه الكبير والكثير، ويسأل ربه مغفرة ذلك والعفو عنه، والسؤال هنا: مَنْ الناس بعد أبي بكر ﷺ؟

إذا تقررت هذه الحقيقة الشرعية - وهي أن الذنوب سببٌ للعقوبات العامة والخاصة - فحري بالعاقل أن يبدأ بنفسه، فيفتش عن مناطق الزلل فيه، وأن يسأل ربه أن يهديه لمعرفة ذلك، فإن من الناس من يستمرئ الذنب تلو الذنب، والمعصية تلو المعصية، ولا ينتبه لذلك! بل قد لا يبالي! ولربما استحسن ذلك - عياداً بالله - فتتابع العقوبات عليه وهو لا يشعر، فتكون مصيبته حينئذٍ مضاعفة!

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - وهو يتحدث عن الأمور التي تورث العبد الصبر وتعينه عليه ليلغ مرتبة الإمامة في الدين - قال: «أن يشهد ذنوبه، وأن الله إنما سلط الناس عليه بسبب ذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾»، فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه؛ اشتعل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه بسببها عن ذنبهم ولومهم، والوقية فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار، فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي، صارت في حقه نعمة، قال علي رضي الله عنه كلمة من جواهر الكلام: «لا يرجو عبدٌ إلا ربه ولا يخاف عبدٌ إلا ذنبه»، وروى عنه وعن غيره: «ما نزل بلاءٌ إلا بذنب ولا

(١) البخاري ح (٨٣٤)، مسلم ح (٢٧٠٥).

رفع إلا بتوبة»^(١).

ويقول تلميذه ابن القيم -رحمة الله عليه- وهو يوضح شيئاً من دلالات هذه القاعدة القرآنية المحكمة:

«وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم، والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء؟ وطرده ولعنه، ومسح ظاهره وباطنه؟ فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبُدِّلَ بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنةً، وبالجمال قبحاً، وبالجنة ناراً تلظى، وبالأيمان كفرًا، وبموالات الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، ولباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان؟ فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحلَّ عليه غضب الرب تعالى، فأهواه ومقته أكبر المقت...

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم؟ حتى علا الماء فوق رأس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية؟ ودمرت ما مرَّ عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم؟ حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة، حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم؟

(١) قاعدة في الصبر -طُبعت ضمن رسائله التي حققها عزيز شمس-: (١/١٦٩).

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها؟ فأهلكم جميعاً ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء، أمطرها عليهم فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحب العذاب كالظلل؟ فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق والأرواح للحرق؟

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟ ... - إلى أن قال -: قال الإمام أحمد رحمته الله: حدثنا الوليد بن مسلم، ثنا صفوان بن عمر، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: لما فتحت قبرص، فُرق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي! فقلت: يا أبا الدرداء! ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله ﷻ إذا أضاعوا أمره؟! بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله؛ فصاروا إلى ما ترى! ^(١).

والذي استطرد كثيرا في بيان آثار الذنوب والمعاصي السيئة على الفرد والمجتمع في كتابه النافع الجواب الكافي وذكر كلاما نفيسا يحسن الرجوع إليه والاستفادة منه. وليُعَلِّم أنه ينبغي أن ندرك أن العقوبات حينها تذكر، فلا يصح حصرها في العقوبات الحسية أو العقوبات الجماعية - التي أشار ابن القيم إلى شيء منها - كإلهم

(١) الجواب الكافي: (٢٦-٢٧).

والغرق والصيحة، أو السجن والعذاب الحسي، ونحو ذلك، فهذه لا شك أنها أنواع من العقوبات، ولكن ثمة أنواع من العقوبات قد تكون أشد وأعظم، وهي تلك العقوبات التي تتسلط على القلب، فيضرب بالغفلة وقسوته، حتى إن جبال الدنيا لو تناطحت أمامه ما اعتبر ولا تعظ - عيادًا بالله - بل يظن المسكين، أو تظن أمة من الأمم - وهي ترى النعم تتابع وتزداد مع استمرارها في البعد عن شرع الله - تظن أن ذلك علامة على رضى الله ﷻ عنها، وهذه لعمر الله من أعظم العقوبات التي يبتلى بها العبد وتبتلى بها أمة من الأمم.

تدبر جيدًا قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٤] فنعوذ بالله أن نكون من أهل هذه الآية، ونسأله بمنه وكرمه أن يتوب علينا وأن يبصرنا بمواطن الزلل منا، وأن لا يضربنا بقسوة القلب، وأن لا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا إن ربي سميع مجيب الدعاء.





القاعدة الثانية والأربعون

﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بواقع الناس؛ إذ لا ينفك أحدٌ عنها لكثرة تلبسهم بها، فكان التذكير بها وبما دلّت عليه أمرًا مهمًّا، إنها القاعدة القرآنية التي دل عليها قول الله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت ضمن سياق الحديث عن كفارة اليمين في سورة المائدة، قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَنِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّرتَهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

ومعنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَنَكُمْ﴾: هو حفظها عن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: حفظها عن الحلف بالله كاذبًا.

والأمر الثاني: حفظها عن كثرة الحلف والأيمان.

والأمر الثالث: حفظها عن الحنث فيها إذا حلف الإنسان، اللهم إلا إذا كان

الحث خيراً، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه سبباً في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه^(١)، وبيان هذه الأمور فيما يلي:

أما حفظ الأيمان عن الحلف الكاذب:

فإن الحلف الكاذب من أكبر الكبائر، وتلك هي اليمين الغموس -التي تغمس صاحبها في الإثم- يقول النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟! قال: «الإشراك بالله»، قال: ثم ماذا؟ قال: «ثم عقوق الوالدين»، قال ثم ماذا؟ قال: «اليمين الغموس» قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: «الذي يقطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب»^(٢).

وقد بَوَّب البخاري رحمته الله على هذا الحديث فقال: باب اليمين الغموس، **وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿١٠٣﴾ دَخَلاً: مكرًا وخيانة.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: «ومناسبة ذكر هذه الآية لليمين الغموس: ورود الوعيد على من حلف كاذباً متعمداً»^(٣).

وإنك لتعجب -مع وضوح هذا الأمر بحفظ اليمين، والتحذير من اليمين الكاذبة- أن يتجرأ بعض الناس على الأيمان الكاذبة، من أجل لعاعة من الدنيا، أو من أجل دفع مضرة عن نفسه بسبب كذبه أو تحاييله! ألم يعلم هؤلاء أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة؟!

(١) ينظر: تفسير الطبري: (٥٦٢/١٠)، وتفسير القرطبي: (٢٨٥/٦)، وتفسير السعدي (٢٤٢).

(٢) البخاري ح (٦٥٢٢).

(٣) فتح الباري: (٥٥٦/١١).

ألم يسمع هؤلاء حديث النبي ﷺ الذي يرتجف له القلب: «من حلف على يمين صبرٍ يقطع بها مال امرئٍ مسلمٍ - هو فيها فاجر - لقي الله وهو عليه غضبان»^(١) ويمين الصبر - كما قال العلماء -: هي التي يجبس الحالف نفسه عليها، وتسمى هذه اليمين الغموس^(٢).

وأما حفظها عن كثرة الحلف والأيمان:

يقول تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾: فهو الإقلال من الحلف، وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، وقال في هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

والعرب كانوا يمدحون الإنسان بالإقلال من الحلف، كما قال كثير:

قليل الألايا حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برّت

والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان:

١- أن من حلف في كل قليل وكثير بالله، انطلق لسانه بذلك ولا يبقى لليمين في قلبه وقع، فلا يؤمن إقدامه على اليمين الكاذبة، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين.

٢- كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله تعالى كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلاً وأعلى عنده من أن يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية^(٣).

٣- أنه يقلل ثقة الإنسان بنفسه، وثقة الناس به، فهو يشعر بأنه لا يصدق

(١) مسلم ح (٢٢٠).

(٢) ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦٠ / ٢).

(٣) ينظر: تفسير الرازي (٦ / ٦٥).

فيحلف، ولهذا وصفه الله تعالى بالمهين^(١).

لذا ينبغي للآباء والأمهات والمربين أن ينتبهوا لهذا الخلل الذي يقع فيه بعض الناس، وأن يربوا من تحت أيديهم على تعظيم الله ﷻ، ومن صور ذلك: نهيمهم عن كثرة الأيمان بلا حاجة.

والملاحظ: أنه لو فُشِّش في أكبر أسباب فشو هذه الظاهرة لوجد أنه من قبل الأبوين والمربين، وهذا يفضي إلى عدم تعظيم اسم الله واحترامه وهيبته.

ومن اللطائف المتعلقة بهذا المعنى: أن النبي ﷺ الذي امتدت دعوته ثلاثة وعشرين عامًا، لم يحفظ عنه أنه حلف إلا في بضع وثمانين موضعًا!

فماذا سيكون جواب بعض الناس الذين لو أحصيت أيمانهم في سنة واحدة لوجدتها بالعشرات، ولغير حاجة ملحة، فرحم الله عبدًا حفظ يمينه، ووقّر ربه، وعظم اسمه، ولم يحلف إلا عند الحاجة!

وأما حفظها عن الحنث في الأيمان:

فإن الواجب على المؤمن إذا حلف على شيء من أمور الخير أو من المباحات أن يتقي الله ويبر بيمينه؛ لأن هذا من تعظيم المحلوف به وتوقيره - وهو الله ﷻ -.

ويستثنى من ذلك: إذا كان الحنث ومخالفة اليمين خيرًا من الاستمرار فيه، فتهام الحفظ: أن يفعل الخير، وأن لا تكون يمينه سببًا في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه.

ومعنى الحنث هنا: مخالفة المحلوف عليه.

ومثال ذلك: أن يحلف على أن لا يأكل النوع الفلاني من الطعام، أو لا يدخل

(١) ينظر: تفسير المنار (٢/ ٢٩١).

البيت الفلاني، فإن الأفضل هنا أن لا يستمر في يمينه، خاصة إن ترجحت المصلحة في الحث، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ^(١) أَعْتَمَ رجل عند النبي ﷺ ثم رجع إلى أهله، فوجد الصبية قد ناموا، فأتاه أهله بطعامه، فحلف لا يأكل من أجل صبيته، ثم بدا له فأكل، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأتها وليكفر عن يمينه» ^(٢).

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني - والله - إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وتحللتها» ^(٣)، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود أن نتأمل هذه القاعدة القرآنية جيداً: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ بأن نحفظها عن الحلف بالله كاذباً، وأن نحفظها عن كثرة الحلف والأيمان من غير حاجة، وأن نحفظها عن الحث فيها إلا إذا كان الحث خيراً من المضي فيها.

وكل ما مضى يجعلنا ندرك أن الشرع الحكيم أولى موضوع الأيمان أهمية بالغة، ويبيّن أحكامها تمام البيان، من أجل أن يعرف المسلم حدود هذه العبادة، وأحكامها، وما يجب وما يحرم وما يستحب، وأن ذلك كله إنما شرع ووضح تعظيماً لله جل وعلا، وليحفظ العبد يمينه من العبث بها، أو التقليل من شأنها، رزقنا الله وإياكم معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وتعظيمها على الوجه الذي يحبه ويرضاه، وأن يمنحنا الفقه في دينه، والبصيرة فيه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



(١) أي: تأخر عنده إلى عتمة الليل، وهي شدة ظلمته.

(٢) مسلم ح (١٦٥٠).

(٣) البخاري ح (٦٣٤٢)، ومسلم ح (١٦٤٩).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثالثة والأربعون

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

هذه القاعدة القرآنية المحكمة - في باب الأخلاق - لها صلة قوية بتربية القلب وتركيبته، كما أن لها صلةً بعلاقة الإنسان بغيره من الناس ^(١).

وهذه القاعدة وردت في كتاب الله في موضعين:

الأول: في سياق الثناء على الأنصار رضوان الله عليهم في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

الثاني: في سورة التغابن في سياق الحديث عن فتنة الأموال والأولاد والأزواج، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٥﴾ فَالْتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٦﴾ إِنَّ تَقْرُضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ [التغابن: ١٤ - ١٧].

(١) وقد أشار إلى كونها قاعدة كلية شيخنا العثيمين رَحِمَهُ اللهُ فِي فتاوى نور على الدرب.

ومعنى هذه القاعدة باختصار لا يتضح إلا ببيان معنى الشح:

فالشح - في مادته اللغوية - «الأصل فيه: المنع، ثم يكون منعاً مع حرص، ومن ذلك الشُّحُّ: وهو البُخل مع حرص، ويقال: تَشَاحَّ الرَّجُلَانِ عَلَى الْأَمْرِ: إذا أراد كُلُّ واحدٍ منهما الفوزَ به ومنعَهُ من صاحبه»^(١).

ولما كان الشُّحُّ غريزةً في النفس أضافه الله إلى النفس ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وهذا لا يعني أنه لا يمكن الخلاص منه، بل الخلاص منه يسير على من يسره الله عليه، ولكن الخلاص التام منه بأنواعه كلها الحسية والمعنوية، لا يوفق له إلا المفلحون، ولهذا رؤي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو يطوف بالبيت ويقول: «رب قني شح نفسي! رب قني شح نفسي!» لا يزيد على ذلك، فقليل له في هذا؟ فقال: «إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزن، ولم أفعل»^(٢).

وهذا من عمق فهم السلف -والصحابة منهم خصوصاً- لمعاني كلام الله تعالى.

وقد قال جمع من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾: هو ألا يأخذ شيئاً مما نهاه الله عنه، ولا يمنع شيئاً أمره الله بأدائه، فالشح يأمر بخلاف أمر الله ورسوله، فإن الله ينهى عن الظلم ويأمر بالإحسان، والشح يأمر بالظلم وينهى عن الإحسان^(٣).

ويقول ابن تيمية: «فالشح -الذي هو شدة حرص النفس- يوجب البخل بمنع ما هو عليه؛ والظلم بأخذ مال الغير، ويوجب قطيعة الرحم، ويوجب الحسد»^(٤).

(١) معجم مقاييس اللغة: (٣/ ١٧٨).

(٢) تاريخ دمشق: (٣٥/ ٢٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٥٨٩).

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ١٤٤).

وقال في موضع آخر: «والشح يكون في الرجل مع الحرص وقوة الرغبة في المال، وبغضٍ للغير وظلمٍ له، كما قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٨) أَشْحَةً عَلَيْكُمْ ﴿إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُولُوا فَأُحْبَطُوا﴾ اللَّهُ أَعْمَلُهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٨ - ١٩] فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه، وبغض الخير يأمر بالشر، وبغض الإنسان يأمر بظلمه وقطيعة كالحسد؛ فإن الحاسد يأمر حاسده^(١) بظلم المحسود وقطيعة كابني آدم وإخوة يوسف^(٢) ا.هـ.

ولعلك لاحظت ارتباط هذه القاعدة - في سورة الحشر والتغابن - بموضوع المال! لأنه - والله أعلم - هو أظهر ما يتضح فيه خلق الشح، وإن كان الشح لا ينحصر بالمال.

ومن الأمثلة التطبيقية التي توضح معنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها:

١- ما وضحته آية الحشر، من المنقبة العظيمة التي مدح الله بها الأنصار الذين فتحوا بيوتهم وصدورهم لإخوانهم من المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، رغم قلة ذات يد كثير منهم، وحسبك بهذه المدحة الإلهية، من العليم الخبير - الذي يعلم ما تكنه النفوس -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحِّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فتأمل هذه الأعمال القلبية التي كشفها ربنا عنهم، وهي كلها تدل على سلامتهم

(١) هكذا! ولعل صوابها: فإن الحسد يأمر صاحبه.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠/٥٩٠).

من شح نفوسهم:

أ- أما العمل الأول ﴿يُحِبُّونَ﴾ إذ من شأن القبائل أن يتخرجوا من الدين يهاجرون إلى ديارهم لمضايقتهم.

ب- وأما العمل الثاني: ففي قوله: ﴿وَلَا يَحْدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ لأنها لو كانت موجودة لأدركوها في نفوسهم.

ج- أما العمل الثالث: فهو الإيثار، وهو: ترجيح شيء على غيره بمكرمة أو منفعة، والمعنى: يُؤثرون على أنفسهم في ذلك اختياراً منهم، والخاصة: شدة الاحتياج^(١).

فهل تريد نموذجاً لم تسمع الدنيا بمثله؟!

تدبر في هذا الموقف الذي رواه لنا الإمام البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: قدم علينا عبد الرحمن بن عوف، وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع، وكان كثير المال، فقال سعد: قد عَلِمْتَ الأنصارُ أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك، دلني على السوق!^(٢).

فتأمل هذا السخاء النادر، والإيثار العظيم!

والله لو كان الموقف يحكي تنازله عن جزء يسير من ماله لكان شهامةً ونُبلاً، فكيف وهو يتنازل عن شطر ماله! بل ويعرض عليه فراق إحدى زوجتيه!! أي نفوس هذه؟!

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٥/٧٢-٧٥).

(٢) البخاري ح (٣٥٧٠).

أين المطلعون على أخبار الأمم؛ ليأتونا بأمثال هؤلاء الرجال تلاميذ مدرسة محمد ﷺ؟!

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ما ذكره الله تعالى في حال خوف المرأة من نشوز زوجها وترفعه عنها وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن -والحال هذه- أن يصلحا بينهما صلحاً بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها، فهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، ثم ذكر المانع بقوله: ﴿وَأَحْضَرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك بطبيعتها، والمعنى: أنه ينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به بالسماحة، وهو بذل الحق الذي عليك؛ والافتناع ببعض الحق الذي لك، فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن سَهِّلَ حيثُذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومُعَامِلَه، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر^(١).

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ما أثنى الله به على أهل الإيثار، من الأنصار ومن وافقهم في هذا الخلق العظيم، الذي اعتبره ابن القيم: أحد مدارج السالكين إلى عبودية رب العالمين، فجعل منزلة الإيثار من جملة هذه المنازل.

فما الإيثار؟! الإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، والشحيح: حريص على ما ليس بيده فإذا حصل بيده شيء شح عليه، وبخل بإخراجه،

(١) تفسير السعدي: (٢٠٦).

فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل.

ولنختم حديثنا بهذا الموقف الذي يدل على عظمة نفوس الصحابة:

فهو لقيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقد كان من الأجواد المعروفين، حتى إنه مرض مرة فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم؟ فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مما لك عليهم من الدين! فقال: أخزى الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حِلٍّ، فما أمسى حتى كسرت عتبة بابه لكثرة من عاده! ^(١).

فلله تلك النفوس الكبيرة، والأخلاق العظيمة! وأكثر في الناس من أمثالهم.



(١) مدارج السالكين: (٢/ ٢٩١).



القاعدة الرابعة والأربعون

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

هذه من أعظم القواعد التي تعين على تعبيد القلب لرب العالمين، وتربيته على التسليم والانقياد.

وهذه القاعدة تدل دلالة واضحة - كما يقول أبو نعيم، في بيان شيء من خصائصه ﷺ -: «أن الله تعالى فرض طاعته على العالم فرضاً مطلقاً لا شرط فيه، ولا استثناء، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وإن الله تعالى أوجب على الناس التآسي به قولاً وفعلاً مطلقاً بلا استثناء، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ واستثنى في التآسي بخليله، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ إلى أن قال: ﴿لَا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾^(١).

ولقد دأب العلماء على الاستدلال بهذه القاعدة في جميع أبواب العلم والدين: فالمصنفون في العقائد يجعلونها أصلاً في باب التسليم والانقياد للنصوص الشرعية، وإن خفي معناها، أو عسر فهمها على المكلف، قال الإمام أحمد: إذا لم نقر بها جاء عن النبي ﷺ ردنا على الله أمره، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

(١) نقله السيوطي في الخصائص الكبرى: (٢/ ٢٩٧).

وَمَاتِهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا ﴿١﴾.

وفي أبواب الفقه: يعتمد كثير من المفتين من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم إلى النزاع بهذه القاعدة في إيجاب شيء أو تحريمه، وإن شئت فقل: في الأمر بشيء أو النهي عنه، وإليك هذه القصة التي رواها الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، فإنه حينما حدث وقال: لعن الله الواشيات والمستوشيات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله! قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب! - وكانت تقرأ القرآن - فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك؟ أنك لعنت الواشيات والمستوشيات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله؟ فقال عبد الله: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله؟! فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لוחي المصحف فما وجدته! فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه! قال الله ﷻ: ﴿وَمَاءَ أَنْتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَاتِهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾!

فقالت المرأة: فإني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن! قال: اذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئاً! فجاءت إليه، فقالت: ما رأيت شيئاً! فقال ابن مسعود رضي الله عنه: أما لو كان ذلك لم نجامعها ^(٢).

وهذا عبد الرحمن بن يزيد يرى محرماً عليه ثيابه، فنهر المحرم، فقال: «اتتني بآية من كتاب الله ﷻ بنزع ثيابي»! فقرأ عليه: ﴿وَمَاءَ أَنْتَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَاتِهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾.

وهذه قصة أخرى - تؤكد وضوح هذا المعنى عند سلف الأمة رحمهم الله -: يقول عبد الله بن محمد الفريابي: سمعت الشافعي بيت المقدس يقول: سلوني عما

(١) الإبانة لابن بطة: (٣/ ٥٩).

(٢) البخاري ح (٤٦٠٤)، مسلم ح (٢١٢٥).

شئتم أخبركم عن كتاب الله، وسنة رسوله! فقلت: إن هذا لجرئ! ما تقول أصلحك الله في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: نعم بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(١).

ويقول محمد بن يزيد بن حكيم المستملي: رأيت الشافعي في المسجد الحرام، وقد جعلت له طنافس^(٢)، فجلس عليها، فأتاه رجل من أهل خراسان، فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في أكل فرخ الزنبور؟ فقال: حرام.

فقال: حرام؟! قال: نعم من كتاب الله، وسنة رسول الله، والمعقول، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(٣).

إن هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: لتدل بمفهومها على ضرورة حفظ السنة، حفظها من الضياع، وحفظها في الصدور، إذ لا يتأتى العمل بالسنة إلا بعد حفظها حساً ومعنى، قال إسماعيل بن عبيد الله: ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما يحفظ القرآن لأن الله يقول: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه﴾^(٤).

وأما الحفظ المعنوي: فإن جهود أئمة الحديث من عهد الصحابة رضي الله عنهم ومن تلاهم من التابعين والأئمة لا تخفى على أدنى مطلع، وليس هذا مقام الحديث عن هذا الموضوع، وإنما المقصود: التنبيه على أن الحفظ الذي تحقق لسنة النبي ﷺ على أيدي هؤلاء قد قام به أئمة الإسلام خير قيام، فلم يبق على من بعدهم إلا حفظ ألفاظها،

(١) تاريخ دمشق: (٥١/٢٧١).

(٢) الطَّنْفَسَةُ والطَّنْفَسَةُ: الثَّمَرَةُ فوق الرجل وجعلها طَنَافِسَ وقيل هي البِساط الذي له خَلٌّ رقيق. ينظر: لسان العرب: (٦/١٢٧).

(٣) سير أعلام النبلاء: (١٠/٨٨).

(٤) تاريخ دمشق: (٨/٤٣٦).

والتفقه في معانيها، والعمل بمقتضاها، إذ هذا هو المقصود الأعظم من ذلك كله.
إن في الآثار التي سقت بعضها، وتركت كثيرًا منها، لدلالة على شمول الآية
لجميع الأوامر -سواء كانت واجبة أم مستحبة-، وشاملة لجميع النواهي -سواء
كانت محرمة أم مكروهة-.

ومن تأمل واقع الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- وجددهم أصحاب القُدْح
المُعَلَّى في تلقي الأوامر والنواهي بنفوسٍ مُسَلِّمة، وقلوبٍ مَخْبَتة، ومستعدة للتنفيذ،
ولا تجد في قاموسهم تفتيشًا ولا تنقيًا: هل هذا النهي للتحريم أم للكرهية؟ ولا: هل
هذا الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ بل ينفذون ويفعلون ما يقتضيه النص، فأخذوا
هذا الدين بقوة، فصار أثرهم في الناس عظيمًا وكبيرًا.

ولما طغى على الناس -في القرون المتأخرة- كثرة السؤال والتنقيب: هل هذا
الأمر واجب أم مستحب؟ وهل هذا مكروه أم محرم؟ صار أخذ كثير منهم لأوامر الله
ونواهيه ضعيفًا، فصار أثر التعبد لله هزيلًا، والانقياد عسيرًا.

إنني لا أنكر انقسام الأوامر إلى واجب ومستحب، ولا أنكر انقسام النواهي إلى
محرم ومكروه، ولا يُنكر أن الإنسان قد يحتاج إلى تفصيل الحال -عند وقوع المخالفة-
ليتبين حكم الله، وما يجب عليه من كفارة ونحو ذلك، لكن الذي يؤسف عليه: أن
أكثر الذين يسألون عن هذا التقسيم، ليس مرادهم طلب العلم وتحرير المسائل، بل
التملص، والتنصل من الامثال، وإلى هؤلاء يتوجه الحديث في هذه القاعدة القرآنية
المحكمة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

إنني موقن أن من ربي نفسه على ترك كل ما يُنهى عنه، وفعل كل ما يستطيعه
من الأوامر، من غير تنقيب عن حال هذا النهي أو ذاك الأمر، بل يبادر تعبدًا لله
تعالى بتعظيم الأمر والنهي؛ فإنه سيجد لذة عظيمة في قلبه، إنها لذة العيش في كنف

العبودية، وظل الاستكانة والاستجابة والخضوع لله رب العالمين.

ومن أعظم دلالات هذه القاعدة: أنها ترد على أولئك الذين يزعمون الاكتفاء بالقرآن فقط في تطبيق أحكام الشريعة، فهاهو القرآن ذاته يأمر باتباع الرسول ﷺ، ولن يكون ذلك إلا باتباع سنته، بل كيف يتأتى للإنسان أن يصلي، أو يزكي، أو يصوم، أو يحج بمجرد الاقتصار على القرآن؟!





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة والأربعون

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، يحتاجها كل مؤمن، وعلى وجه الخصوص من عزم على الإقبال على ربه، وقرع باب التوبة.

وهذه القاعدة هي جزء من آية كريمة في سورة هود، يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وهذه الآية الكريمة سبقت بجملة من الأوامر العظيمة للنبي ﷺ ولأمته، يحسن ذكرها ليتضح الربط بينها، يقول تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابِ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٣ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٢ - ١١٣].

ومعنى الآية -التي تضمنت هذه القاعدة باختصار-: أن الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ - وهو خطاب للأمة كلها - بأن يقيموا الصلاة طرفي النهار، وساعات من الليل، ينصب فيها قدميه لله تعالى، ثم علّل هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يمحوها ويكفرنها حتى كأنها لم تكن - على تفصيل سيأتي بعد قليل إن شاء الله - والإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ وما بعده،

وقيل: إلى القرآن، ذكرى للذاكرين: أي موعظة للمتعتظين^(١).

وكما أن هذه القاعدة صرحت بهذا المعنى، وهو إذهاب الحسنات للسيئات، فقد جاء في السنة ما يوافق هذا اللفظ تقريباً، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وحسنه^(٢) من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(٣).

إذا تبين معنى هذه القاعدة بإجمال، فليعلم أن إذهاب السيئات يشمل أمرين:

١- إذهاب وقوعها، وحبها في النفس، وكرهها، بحيث يصير انسياق النفس إلى ترك السيئات سهلاً وهيناً كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمُنُّ ذَرَّةُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها.

٢- ويشمل أيضاً محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلها، فضلاً من الله على عباده الصالحين^(٤).

ولقد بحث العلماء ههنا معنى السيئات التي تذهبها الحسنات، والذي يتحرر في الجمع بين أقوالهم أن يقال:

إن كانت الحسنة هي التوبة الصادقة، سواء من الشرك، أو من المعاصي، فإن حسنة التوحيد، والتوبة النصوح لا تبقي سيئة إلا محتها وأذهبتها، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

(١) ينظر: فتح القدير (٢/٦٧٨).

(٢) وفي بعض النسخ: صحيح، وقد استبعد هذا ابن رجب في تعليقه على هذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» ح (١٨).

(٣) الترمذي ح (١٩٨٧)، وقد رجح الدارقطني إرساله، وانظر تعليق ابن رجب عليه في «الجامع» ح (١٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (٧/٢٨٤).

لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْبُؤُا إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له - لما جاءه يبایعه على الإسلام والهجرة - : «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»^(١).

وإن كان المراد بالحسنات عموم الأعمال الصالحة كالصلاة والصيام، فإن القرآن والسنة دلالة صريحة على أن تكفير الحسنات للسيئات مشروط باجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال صلى الله عليه وسلم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»^(٢).

لقد جاء معنى هذه القاعدة الجليلة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ في القرآن الكريم على صور منها:

١ - في سياق الشاء على أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ [الرعد: ٢٢].

(١) مسلم ح (١٢١).

(٢) مسلم ح (٢٣٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه - في بيان معناها -: يدفعون بالصالح من العمل السيئ من العمل.

علق البغوي على كلمة ابن عباس، فقال: وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١).

٢- إثبات هذا المعنى في الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَآ دَخَلَتْهُمُ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: ٦٥].

٣- إثباته في سياق الحديث عن توبة العصاة، كما في آية الفرقان التي تلوتها قبل قليل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾ الآيات [الفرقان: ٦٨-٧١].

* من تطبيقات هذه القاعدة:

إن الأمثلة التطبيقية التي توضح وتؤكد معنى هذه القاعدة المحكمة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ لكثيرة جداً، لكن لعلنا نذكر بعضها تنبيهاً على باقيها، وأول ما نبدأ به من الأمثلة هو ما ذكره ربنا في الآية الكريمة التي تضمنتها هذه القاعدة، وهو:

١- إقامة الصلاة طرقي النهار - وهو مبتدأه ومنتهاه -، وساعات من الليل، ولا ريب أن أول ما يدخل في هذه الصلوات الخمس، كما يدخل فيها: بقية النوافل، كالسنن الرواتب، وقيام الليل.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تدل على أن الصلوات المفروضات والنوافل من أعظم الحسنات الماحية للسيئات، فإن السنة صرحت بهذا - كما تقدم - بشرط اجتناب الكبائر.

(١) تفسير البغوي: (٤/٣١٣).

فليشر الذين يحافظون على صلواتهم فرضها ونفلها بأنهم من أعظم الناس حظاً من هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، ويا تعاسة وخسارة من فرطوا في فريضة الصلاة!!.

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة، ما رواه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلةً، فأتى النبي ﷺ فأخبره؛ فأنزل الله ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟! قال: «بل لجميع أمتي كلهم»^(١).

٣- قصة توبة القاتل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً -وهي في الصحيحين- وهي قصة مشهورة جداً، والشاهد منها، أنه لما انطلق من أرض السوء إلى أرض الخير: «أتاه الموت فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاه ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فألى أيتها كان أدنى فهو له، فقاوسه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»^(٢).

فألى كل من أسرف على نفسه، وقنطه الشيطان من رحمة ربه، لا تيأسن ولا تقنطن، فهذا رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فلما صحّت توبته، رحمه ربه ومولاه، مع أنه لم يعمل خيراً قط من أعمال الجوارح سوى هجرته من بلد السوء إلى بلد الخير، أفلا تحرك فيك هذه القصة الرغبة في هجرة المعاصي، والإقبال على من لا سعادة ولا أنس إلا بالإقبال عليه؟!.

وتأمل في هذه الكلمة المعبرة، التي قال الحسن البصري: «استعينوا على السيئات

(١) البخاري ح (٥٠٣)، ومسلم ح (٢٧٦٣).

(٢) البخاري ح (٣٢٨٣)، ومسلم ح (٢٧٦٦).

القديمات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئاً أذهب بسيئة قديمة من حسنة
حديثة، وأنا أجد تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^(١).
اللهم ارزقنا حسناتٍ تذهب سيئاتنا، وتوبة تجلو أنوارها ظلمة الإساءة
والعصيان.



(١) تفسير ابن أبي حاتم: (٢٧٩/٨).



القاعدة السادسة والأربعون

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بقضية مهمة في باب الصلة مع الله، ومع عباده.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة، جاء ذكرها ضمن سياق آيات الحج، قال تعالى:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النُّقُوءَ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ويحسن قبل الشروع في بيان شيء من معاني هذه القاعدة، أن نوضح معنى الآية التي تضمنتها هذه القاعدة بإيجاز، فيقال:

١- لما تقرر فرض الحج، وذكرت بعض أحكامه قبل هذه الآية -فيما يخص الإتمام والإحصار- بدأ الحديث عن جملة من الآداب والأحكام، منها: النهي عن الرفث «وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتهم، والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام، والجدال وهو: المماراة

والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة»^(١) ف «لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً، حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به، وسيجزئهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة»^(٢).

٢- وفي الإخبار بأنه ما من خير نفعله إلا وهو يعلمه سبحانه وتعالى، دلالة واضحة على أن هذا متضمن الإثابة على هذا، والحض عليه، وإلا فإنه ﷻ يعلم الخير والشر، ونظير هذه القاعدة قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

٣- وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ في سياق هذه الجملة الشرطية: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ دليل على شمول الآية لكل خير قليلاً كان أو كثيراً.

٤- ثم ختمت الآية بأمرين مهمين، تضمنهما قوله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾، ففي قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ أي اتخذوا زاداً لغذاء أجسامكم، وغذاء قلوبكم - وهذا أفضل النوعين - لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾، فلما رغب سبحانه وتعالى في التقوى، أمر بها طلباً لخيرها فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾، وإنما خوطب أصحاب العقول بهذا الخطاب - وهم أولوا الألباب - لأنهم هم الذين يدركون فائدة التقوى، وثمرتها؛ أما السفهاء فلا يدركونها»^(٣).

إن هذه القاعدة الجليلة، لتربي في المؤمن معاني إيمانية وتربوية كثيرة - وهو في سيره إلى الله والدار الآخرة -، ولعلنا نلخص هذه المعاني فيما يلي:

(١) تفسير السعدي (٩١).

(٢) تفسير ابن كثير: (١٩٧/١).

(٣) ينظر: تفسير القرآن للعثيمين (٤١٥/٢).

أولاً: في هذه الآية ترغيب وحض على إخلاص العمل لله جلّ وعلا، وإن لم يطلع عليه أحد، بل إن الموفق من عباد الله من يحرص كل الحرص على إخفاء العمل عن الخلق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفي ذلك من الفوائد والعوائد على القلب والنفس الشيء الكثير، ولابن القيم كلمات تكتب بهاء الذهب في هذا المعنى، حيث يقول:

«وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله، قد تحدث بها، وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله، وأن لا يطلعوا عليه أحداً، ويتكتمون به غاية التكتّم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

من سارروه فأبدى السر مجتهداً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا يأمنون مديعاً بعض سرهم حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيءٍ كتماناً لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به، وجمعية القلب عليه، ولا سيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي، وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة - التي أصلها ثابت وفرعها في السماء - في قلبه - بحيث لا يخشى عليه من العواصف - فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به؛ لم يبال، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله»^(١).

ثانياً: ومن المعاني التي تربيها هذه القاعدة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ في نفوس أهلها:

راحة النفس، واطمئنان القلب، ذلك أن المحسن إلى الخلق، المخلص في ذلك لا ينتظر التقدير والثناء من الخلق، بل يجد سهولةً في الصبر على نكران بعض الناس

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ٨٤٧) ط. عالم الفوائد.

للجميل الذي أسداه، أو المعروف الذي صنعه! فإنه إذا يفعل الخير ويوقن بأن ربه يعلمه علماً يثيب عليه؛ هان عليه ما يجده من جحود ونكران، فضلاً عن التقصير في حقه، ولسان حاله - كما أخبر الله عن أهل الجنة - : ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩].

أعرف رجلاً مفضلاً، له شفاعات ووجاهات لنفع الخلق، وابتلي بأناس نسوا جميله، وتنكروا لمعروفه، بل شعر أن بعضهم طعنه من الخلف، أو قلب له ظهر المجن!

فذكرتُ له هذا المعنى -الذي ندندن حوله ههنا- فاستراح كثيراً. ومع ما تقدم ذكره، فإني أهدي لإخواني -الذين من الله عليهم بالإحسان إلى الخلق وابتلوا بجفائهم- هذا النص النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث يقول في كلام طويل له حول هذا المعنى، قال:

«ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتَقَى﴾ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩] (١)، وقال في موضع آخر -موصياً من يتصدى لنفع الخلق-:

«وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم: ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويعلم أن الله قد منَّ عليه بأن جعله محسناً، ولم يجعله مسيئاً، فيرى أن عمله لله وأنه بالله، وهذا مذكور في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ...﴾، فالؤمن يرى: أن عمله

لله لأنه إياه يعبد وأنه بالله؛ لأنه إياه يستعين، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكوراً؛ لأنه إنما عمل له ما عمل الله كما قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: ٩]، ولا يمن عليه بذلك ولا يؤذيه، فإنه قد علم أن الله هو المان عليه إذ استعمله في الإحسان، وأن المنّة لله عليه وعلى ذلك الشخص، فعليه هو: أن يشكر الله إذ يسره لليسرى، وعلى ذلك: أن يشكر الله إذ يسر له من يقدم له ما ينفعه من رزقٍ أو علمٍ أو نصرٍ أو غير ذلك.

ومن الناس: من يحسن إلى غيره ليؤمنَّ عليه، أو يرد الإحسان له بطاعته إليه، وتعظيمه أو نفع آخر، وقد يمن عليه فيقول: أنا فعلت بك كذا، فهذا لم يعبد الله ولم يستعنه، ولا عمل لله ولا عمل بالله، فهو المرائي، وقد أبطل الله صدقة المنان وصدقة المرائي... إلخ^(١).

والمقصود: أن من فهم ما ترشد إليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أقدم على فعل الخير، وسهل عليه الصبر على تقصير الخلق وجفائهم؛ لأنه لا يرجو سوى الله، نسأل الله تعالى بمَنّهِ وكرمه أن يرزقنا فعل الخيرات، والإخلاص لله تعالى في كل ما نأتي ونذر.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السابعة والأربعون

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، نحن بأمس الحاجة إليها كل حين، وخاصة حين يتلى الإنسان بمصيبة من المصائب المزعجة، وما أكثرها في هذا العصر.

وهذه القاعدة القرآنية جاء ذكرها ضمن آية كريمة في سورة التغابن يقول الله فيها: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

والآية - كما هو ظاهر وبيّن - تدل على أنه ما من مصيبة أيّا كانت، سواء كانت في النفس، أو في المال، أو في الولد، أو الأقارب، ونحو ذلك، فكل ذلك بقضاء الله وقدره، وأن ذلك بعلمه وإذنه القدري ﷻ، وجرى به القلم، ونفذت به المشيئة، واقتضته الحكمة، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بما يجب عليه من عبودية الصبر والتسليم - الواجبين -، ثم الرضا عن الله تعالى؟! وإن كان الرضا ليس واجبا بل مستحبا.

وتأمل كيف علق الله تعالى هداية القلب على الإيمان؛ ذلك أن الأصل في المؤمن أن يروضه الإيمان على تلقي المصائب، واتباع ما يأمره الشرع به من البعد عن الجزع

والهلع، متفكرًا في أن هذه الحياة لا تخلوا من منغصات ومكدرات:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقداء والأقذار!

وهذا كما هو مقتضى الإيمان، فإن في هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ إيماءً إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب؛ لأنه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك جاء ختم هذه الآية بجملة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

وهذا الختم البديع بهذه الجملة: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يزيد المؤمن طمأنينة وراحة من بيان سعة علم الله، وأنه لا يخفى عليه شيء مما يقع، وأنه لا يعلم بما يصلح حال العبد وقلبه، وما هو خير له في العاجل والآجل، وفي الدنيا وفي الآخرة، يقرأ المؤمن هذا وهو يستشعر قول النبي ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»^(٢).

ويقول عون بن عبد الله بن عتبة: «إن الله ليكره عبده على البلاء كما يكره أهل المريض مريضهم، وأهل الصبي صبيهم على الدواء، ويقولون: اشرب هذا، فإن لك في عاقبته خيرًا»^(٣)، ولنعد إلى هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ التي هي موضع حديثنا.

وثمة كلمات نورانية، قالها سلف هذه الأمة تعليقًا على معنى هذه القاعدة، ولنبدأ بحبر الأمة وترجمان القرآن -ابن عباس- حيث يقول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢٨/٢٥١).

(٢) مسلم ح (٢٩٩٩).

(٣) حلية الأولياء: (٤/٢٥٢).

يَا اللَّهُ يَهْدِ قَلْبَهُ: يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه^(١).

ويقول علقمة بن قيس - في هذه القاعدة ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ -: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى»^(٢).

وقال أبو عثمان الحيري: «من صح إيمانه؛ هدى الله قلبه لاتباع السنة»^(٣).

ومن لطيف ما ذكر من القراءات الماثورة - وإن كانت ليست متواترة ولا مشهورة -: أن عكرمة قرأ: «ومن يؤمن بالله يهدأ قلبه» أي: يسكن ويطمئن^(٤).

ومجيء هذه القاعدة في هذا السياق له دلالات مهمة، من أبرزها:

١ - تربية القلب على التسليم على أقدار الله المؤلمة كما سبق.

٢ - أن من أعظم ما يعين على تلقي هذه المصائب بهدوء وطمأنينة: الإيمان القوي برب العالمين، والرضا عن الله تعالى، بحيث لا يتردد المؤمن - وهو يعيش المصيبة - بأن اختيار الله خير من اختياره لنفسه، وأن العقابة الطيبة ستكون له - ما دام مؤمناً حقاً - فإن الله تعالى ليس له حاجة لا في طاعة العباد، ولا في ابتلائهم! بل من وراء الابتلاء حكمة بل حَكَمٌ وأسرار بالغة لا يحيط بها الإنسان، وإلا فما الذي يفهمه المؤمن حين يسمع قول النبي ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل»؟!^(٥)، وما الذي يوحيه للإنسان ما يقرأه في كتب السير والتواريخ من أنواع

(١) تفسير الطبري: (٤٢١/٢٣).

(٢) تفسير الطبري: (٤٢١/٢٣).

(٣) تفسير القرطبي: (١٣٩/١٨).

(٤) تفسير القرطبي: (١٣٩/١٨).

(٥) الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٦٩٩، ٧٠٠)، وقد صححه الترمذي وابن حبان وغيرهما، ولعله لشواهد.

الابتلاء التي تعرض لها أئمة الدين؟!

إن الجواب باختصار شديد: «أن أثقال الحياة لا يطيقها المهازيل، والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله، لم يستأجر له أطفالاً أو مرضى أو خوارين؛ إنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة، والمناكب الشداد!! كذلك الحياة، لا ينهض برسالتها الكبرى، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون!»^(١).

ليس بوسع الإنسان أن يسرد قائمة بأنواع المصائب التي تصيب الناس، وتكدر حياتهم، لكن بوسعه أن ينظر في هدي القرآن في هذا الباب، ذلك أن منهج القرآن الكريم في الحديث عن أنواع المصائب حديث مجمل، وتمثيل بأشهر أنواع المصائب، لكننا نجد تركيزاً ظاهراً على طرق علاج هذه المصائب، ومن ذلك:

١- هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ فهي تنبه إلى ما سبق الحديث عنه من أهمية الصبر والتسليم، وتعزيز الإيمان الذي يصمد لهذه المصائب.

٢- ومن طرق معالجة القرآن لشأن المصائب: الإرشاد إلى ذلك الدعاء العظيم الذي جاء ذكره في سورة البقرة، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

٣- كثرة القصص عن الأنبياء وأتباعهم، الذين لقوا أنواعاً من المصائب والابتلاءات التي تجعل المؤمن يأخذ العبرة، ويتأسى بهم، ويهون عليه ما يصيبه إذا تذكر ما أصابهم، وعلى رأسهم نبينا وإمامنا وسيدنا محمد ﷺ.

(١) خلق المسلم: (١٣٣-١٣٤) باختصار.

ويتبع هذا العلاج القرآني: النظر في سير الصالحين من هذه الأمة وغيرهم، ممن ابتلوا فصبروا، ثم ظفروا، ووجدوا -حقاً- أثر الرضا والتسليم بهداية يقذفها الله في قلوبهم، وهم يتلقون أقدار الله المؤلمة، والموفق من تعامل مع البلاء بما أرشد الله إليه ورسوله ﷺ، وبما أرشد إليه العقلاء والحكماء، ففي كلام بعضهم عبر متينة، وتجارب ثرية، فتأمل -مثلاً- إلى مقولة الإمام الجليل أبي حازم -والتي تزيج جبال الهم التي جثمت على صدور الكثيرين- يقول: «الدنيا شيئان: فشيء لي، وشيء لغيري، فما كان لي لو طلبته بحيلة من في السموات والأرض لم يأتيني قبل أجله، وما كان لغيري لم أرجه فيما مضى، ولا أرجوه فيما بقي، يمنع رزقي من غيري كما يمنع رزق غيري مني، ففي أي هذين أفني عمري؟!»^(١).

وبعد: لماذا يتسخط بعضنا ويتوجع على حادثٍ حصل قبل سنوات؟! ولماذا يقلب أحداً ملف زواج فاشل قبل عقد من الزمن؟! أو صفقة تجارية خاسرة، أو أسهم بارت تجارتها؟! وكأنه بذلك يريد أن يجدد أحزانه!!
فيا كل مبتلى:

اصبر على القدر المجلوب وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدرُ
فما صفا لأمري عيشٌ يُسرُّ به إلا سيتبع يوماً صفوه كدرُ

وأوصي في ختام هذه القاعدة بقراءة رسالة قيمة جداً، قليلة الكلمات، عظيمة المعاني، لشيخ شيوخنا: العلامة الجليل، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وعنوان رسالته: «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».



(١) حلية الأولياء: (١٠/١٠٤).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الثامنة والأربعون

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، سارت مسار الأمثال، وهي أثر من آثار حكمة الله تعالى في خلقه، تعين من تدبرها على رؤية الأمور بتوازن واعتدال.

وهذه القاعدة جزء من آية كريمة في سورة البقرة وسورة الأعراف، في قصة استسقاء نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام لقومه، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

والمعنى الخاص الذي يتعلق بهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى امتن على بني إسرائيل بأن جعل العيون التي انفجرت من ذلك الحجر اثنتي عشرة عينًا، بعدد قبائل بني إسرائيل، منعًا للزحام، وتيسيرًا عليهم؛ ليعرف كل سبط من أسباط بني إسرائيل، فلما تحققت هذه المنة اكتملت عليهم النعمة؛ بتنوع المأكّل والمشارب من غير جهد ولا تعب، بل هو محض فضل الله ورزقه، وتمت عليهم النعمة بتنظيم أمرهم في الورود والصدور، فأصبحوا منظمين، لا يبغي أحد على أحد، ولا يُنقص أحد حق أحد.

وهذا المعنى -الذي دلّت عليه هذه القاعدة- جاء ذكره في قاعدة أخرى، لكن بلفظ مغاير وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي على طريقته وسيرته التي اعتادها صاحبها، ونشأ عليها.

وكما أن هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة فقد جاءت السنة بتقريره كما في قوله ﷺ: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»^(١).

والحاصل: أن هذا المعنى جاءت الشريعة بتقريره بعبارات متنوعة، وجُمِلَ مختصرة وألفاظ مختلفة، ولعلنا في هذه القاعدة نشير إلى أهم هذه التطبيقات التي حصل بسبب الإخلال بها بعض الآثار السيئة، وفات بسبب ذلك بعض المكاسب الطيبة، ذلكم هو:

أهمية معرفة الإنسان للمواهب والقدرات التي وهب الله إياها، ليفيد في المجال الذي يناسبه ويتفق مع قدراته ومواهبه؛ إذ من المقرر أن الناس ليسوا على درجة واحدة في المواهب والقدرات والطاقات، ولم يجتمع الكمال البشري إلا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فمعرفة الإنسان لما يحسنه ويتميز به مهم جداً في تحديد المجال الذي ينطلق فيه؛ ليدع وليتفع أمته؛ إذ ليس القصد هو العمل فحسب، بل الإبداع والإتقان.

ومن نظر في سير الصحابة رضوان الله عليهم أدرك شيئاً من دقة تطبيقهم لمعاني هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِئَهُمْ﴾ فمنهم العالم المتخصص، ومنهم المعروف بالسنان ومقارعة الفرسان، وثالث يدع في ميادين الشعر والبيان.

(١) البخاري ح (٧١١٢)، مسلم ح (٢٦٤٨).

ومن جميل ما يُذكر في هذا المقام: القصة التي رواها ابن عبد البر في «التمهيد» ذلك أن عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد، كتب إلى الإمام مالك يحضه إلى الانفراد والعمل، ويرغبُ به عن الاجتماع إليه في العلم، فكتب إليه مالك: «إن الله ﷻ قَسَمَ الأعمال كما قَسَمَ الأرزاق، فَرُبَّ رجل فُتِحَ له في الصلاة ولم يُفْتَحَ له في الصوم، وآخر فُتِحَ له في الصدقة ولم يُفْتَحَ له في الصيام، وآخر فُتِحَ له في الجهاد ولم يُفْتَحَ له في الصلاة، ونَشَرُ العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رَضِيتُ بما فُتِحَ الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قَسَمَ له، والسلام»^(١).

وهذا الجواب من الإمام مالك لا يدل على علمه فحسب، بل على وفور عقله، وسمو أدبه، وجودة بيانه عن هذه القضية التي تاه في تقديرها فتام من الناس.

وفي عصرنا هذا برز سِجَالٌ يشبه هذا، نبّه الإمام مالك على خطأ قصور النظر فيه، فإنك واجدٌ في مقالات بعض الناس الذين نفروا للجهاد في سبيل الله عتاباً ولوماً لبعض العلماء المتفرغين للتعليم ونشر العلم، طالبين منهم النفير والخروج إلى الجهاد؛ لأن الجهاد أفضل الأعمال، وأنه فرض الوقت و... في سلسلة من التعليقات التي يُصَدِّرون بها هذا اللون من العتاب، ويقابل ذلك - أحياناً - عتاب آخر من قِبَل بعض المشتغلين بالعلم والدعوة، بلوم هؤلاء المتفرغين للجهاد، ورميهم لهم بأن كثيراً منهم ليس بعالم، ولا يفقه كثيراً من مسائل الشرع و... في سلسلة من المآخذ التي كان يمكن تهذيبها وتخفيف حدة تأمل الجميع هذه القاعدة وما جاء في معناها، كالقاعدة النبوية الآتفة الذكر: «كل ميسر لما خُلق له».

يوضح هذا ويبينه قول النبي ﷺ: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي في الجنة:

(١) التمهيد: (٧/ ١٨٥).

يا عبد الله، هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان» قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، ما على أحد يدعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم وأرجو أن تكون منهم»^(١).

قال ابن عبد البر: «وفيه: أن أعمال البر لا يُفتح - في الأغلب - للإنسان الواحد في جميعها، وأن من فُتح له في شيء منها حُرِّم غيرها في الأغلب، وأنه قد تُفتح في جميعها للقليل من الناس، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه من ذلك القليل»^(٢).

وفي الساحة نماذج كثيرة خسرت الأمة طاقاتهم؛ بسبب الإخلال بما دلت عليه هذه القاعدة: فهذا شاب مبدع في العلم، وآتاه الله فهمًا وقدرةً على الحفظ، وسلك طريقه في العلم، فيأتيه من يأتيه ليقنعه بالانخراط في العمل الخيري، وكأنه - وهو في طريق الطلب - في طريق مفضول، أو عمل مرجوح!

والعكس صحيح، فمن الشباب من يجتهد في طلب العلم، لكنه لا ينجح ولا يتقدم، ويعلم مَنْ حوله أنه ليس من أهل هذا الشأن، فليس من الحكمة في شيء أن يُطالب هذا الرجل وأمثاله بأكثر مما بذل، فقد دلت التجربة على أنه ليس من أحلاس العلم، فينبغي توجيهه إلى ما يحسنه من الأعمال؛ فالأمة بحاجة إلى طاقات في العمل الخيري، والإغاثة، والاجتماعي والدعوي.

وفيا أشرنا إليه في تنوع اهتمامات الصحابة رضوان الله عليهم ما يؤكد أهمية فهم هذه القاعدة على الوجه الصحيح؛ حتى لا نخسر طاقات نحن بأمس الحاجة

(١) البخاري في مواضع، منها: ح (٣٤٦٦)، مسلم ح (١٠٢٧).

(٢) التمهيد: (١٨٥/٧).

إليها، خصوصاً في هذا الزمن الذي تنوعت فيه الاهتمامات، وتعددت فيه طرائق خدمة الإسلام، ونفع الناس، والموفق من عرف ما يُحسِّنه، فوظَّفه لخدمة دينه وأُمته، وفي الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»^(١)، وكيف يتأتى الإتيان من شخص لا يحسن ما يعانیه ويعالجه؟!

هذه بعض هدايات الوحي: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ﴾، ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكَلَتِهِ﴾، «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»^(٢)، فهل نتدبرها ونستفيد منها؛ من أجل فاعلية أكثر لطاقتنا؟.



(١) أخرجه أبو يعلى: (٣٤٩/٧) ح (٤٣٨٦) وفي سنده ضعف، لكن معناه صحيح.

(٢) سبق تخريجه آنفاً.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة التاسعة والأربعون

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، لها أثرها البالغ في تصحيح سير الإنسان إلى ربه، وضبط عباداته ومعاملاته وسلوكياته، ومعرفة ما يخفى عليه أو يُشكل من أمر دينه.

وهذه القاعدة تكررت بنصها في موضعين من كتاب الله تعالى:

الموضع الأول: في سورة النحل، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٣ - ٤٤].

والموضع الثاني: في سورة الأنبياء، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وكلا الآيتين جاء في سياق إرشاد الكفار - المعاندين والمكذبين - إلى سؤال من سبقهم من أهل الكتاب، وفي هذا الإرشاد إيحاء واضح إلى أن أولئك المشركين المعاندين لا يعلمون، وأنهم جهال؛ وإلا لما كان في إرشادهم إلى السؤال فائدة.

وإذا تأملت في هذه القاعدة مع سياقها في الموضعين من سورة النحل والأنبياء،

خرجت منها بأمور:

- ١- عموم هذه القاعدة فيها مدح لأهل العلم.
- ٢- أن أعلى أنواع هذا العلم: العلم بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم معاني الوحي بالرجوع إليهم في جميع الحوادث.
- ٣- أنها تضمنت تعديل أهل العلم وتزكيتهم، حيث أمر بسؤالهم.
- ٤- أن السائل والجاهل يخرج من التبعة بمجرد السؤال، وفي ضمن هذا: أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.
- ٥- كما أشارت هذه القاعدة إلى أن أفضل أهل الذكر: أهل هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم^(١).
- ٦- الأمر بالتعلم، والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.
- ٧- وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك.
- ٨- وفي هذه القاعدة دليل واضح على أن الاجتهاد لا يجب على جميع الناس؛ لأن الأمر بسؤال العلماء دليل على أن هناك أقوامًا فرضهم السؤال لا الاجتهاد، وهذا كما هو دلالة الشرع، فهو منطق العقل -أيضًا- إذ لا يتصور أحد أن يكون جميع الناس مجتهدين.
- لقد مررنا كثيرًا في هذه القواعد، أن المقرر في علم أصول التفسير: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه القاعدة -التي نحن بصدد الحديث

(١) ينظر: تفسير السعدي (٥١٩، ٤٤١).

عنها- مثال لذلك، فهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بأمر المعاندين أن يسألوا عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر - وهم أهل العلم -؛ فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين: أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علمٌ منها وبها، فعليه أن يسأل من يعلمها.

وهذا من الوضوح بمكان، بحيث لا يحتاج إلى استطراد، إلا أن الذي يحتاج إلى تنبيه وتوضيح هو ما يقع من مخالفة هذه القاعدة في واقع الناس، وخرقٍ للأداب التي تتعلق بهذا الموضوع المهم، ومن صور ذلك:

١- أنك ترى بعض الناس حينما تعرض له مشكلة أو نازلة، واحتاج إلى السؤال عنها سأل عنها أقرب شخص يمر به، ولو لم يعلم حاله، هل هو من أهل العلم أم لا! وبعض الناس يعتمد على المظاهر، فإذا رأى من سيماه الخير ظنَّ أنه من طلاب العلم أو العلماء الذين يستفتى مثلهم!

وكل ذلك غلط بيِّن، ومخالف لما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾!

ولا أدري، ماذا يصنع هؤلاء إذا مرض أحدهم؟ أيستوقفون أول ما رآ عليهم في الشارع فيسألونه! أم يذهبون إلى أمهر الأطباء وأكثرهم حدقاً؟

ولا أدري ماذا يصنع هؤلاء إذا أصاب سيارته عطل أو تلف؟ أيسلمها لأقرب من يمر به؟ أم يبحث عن أحسن مهندس يتقن تصليح ما أصاب سيارته من تلف؟ إذا كان هذا في إصلاح دنياه، فإن توقيه في إصلاح دينه أعظم وأخطر!

قال مالك بن أنس رحمته الله: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(١).

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال: (١ / ١٦١).

ومن صور مخالفة هذه القاعدة:

٢- عدم الثبوت في الأخذ عن أهل الذكر حقاً؛ ذلك أن المنتسبين للعلم كثر، والمتشبهين بهم أضعاف ذلك، ومن شاهد بعض من يظهرون في الفضائيات أدرك شيئاً من ذلك؛ فإن الناس -بسبب ضعف إدراكهم، وقلة تمييزهم- يظنون أن كل من يتحدث عن الإسلام فهو عالم، ويمكن استفتاءه في مسائل الشرع! ولا يفرقون بين الداعية أو الخطيب، وبين العالم الذي يعرف مآخذ الأدلة، ومدارك النصوص، فظهر -تبعاً لذلك- ألوان من الفتاوى الشاذة، بل والغلط الذي لا يُحتمل ولا يُقبل، وكثر اتباع الهوى، وتبع الرخص من عامة الناس، فرقّ تدينهم، وضعفت عبوديتهم بأسباب من أهمها: فوضى الفتاوى التي تعج بها كثير من الفضائيات.

وهذا ما يجعل الإنسان يفهم ويدرك جيداً موقع المقالات المأثورة عن السلف -رحمهم الله- في شأن الفتوى وخطورتها، وهي نصوص ومواقف كثيرة، منها:

ما رواه ابن عبد البر: أن رجلاً دخل على ربيعة بن عبد الرحمن -شيخ الإمام مالك- فوجده يبكي! فقال له: ما يبكيك؟ -وارتاع لبكائه-، فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استفتيت من لا علم له! وظهر في الإسلام أمر عظيم! قال ربيعة: ولَبَعْضُ من يفتي ههنا أحق بالسجن من الشُّراق^(١).

علق العلامة ابن حمدان الحراني على هذه القصة فقال:

«قلت: فكيف لو رأى ربيعة زماننا، وإقدام من لا علم عنده على الفتيا، مع قلة خبرته وسوء سيرته وشؤم سريره؟! وإنما قصده السمعة والرياء، ومماثلة الفضلاء والنبلاء والمشهورين المستورين، والعلماء الراسخين، والمتبحرين السابقين، ومع هذا فهم يُنْهَوْنَ فلا يتنّهون، ويُنبّهون فلا يتنبّهون، قد أُملي لهم بانعكاف الجهال عليهم،

(١) جامع بيان العلم وفضله: (٢/٢٠١).

وتركوا ما لهم في ذلك وما عليهم»^(١).

والمقصود من هذا البيان الموجز: التنبيه على ضرورة تحري الإنسان في سؤاله، وأن لا يسأل إلا من تبرأ به الذمة، ومن هو أتقى وأعلم وأورع؛ فهؤلاء هم أهل الذكر حقاً، الذين نصت هذه القاعدة على وصفهم بهذا: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وختاماً: فإن الحديث السابق لا يفهم منه -أبداً- أن جميع من يظهرون على الفضائيات كمن ذكروا آنفاً، بل فيمن يظهر -ولله الحمد- عدد طيب من العلماء الراسخين، والشيوخ المتقنين، لكن الحديث كان منصّباً على طوائف من المفتين، ليسوا على جادة أهل العلم في الفتوى، وليسوا أهلاً لها: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

والله المستعان، وعليه التكلان، ونعوذ به تعالى أن نقول عليه، أو على رسوله ﷺ ما لا نعلم.



(١) صفة الفتوى (١١) لأحمد بن حمدان النمري.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخمسون

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

لعل ختم هذا الكتاب بهذه القاعدة من المناسبة بوضوح، والتي تجعل المؤمن يزداد يقيناً بعظمة هذا القرآن، وأنه الكتاب الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان، إنها القاعدة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وهذه القاعدة جاءت ضمن آية كريمة في سورة الإسراء، والتي يقول الله فيها: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

قال قتادة -موضحاً بكلمات موجزة معنى هذه القاعدة-: «إن القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم: فأما دأؤکم فالذنوب والخطايا، وأما دواؤکم فالاستغفار»^(١).

وهذا التفسير من هذا الإمام الجليل إشارة واضحة إلى شموله إلى علاج جميع الأدواء، وأن فيه جميع الأدوية، لكن يبقى الشأن في الباحثين عن تلك الأدوية في هذا القرآن العظيم.

(١) الدر المنثور: (٥/٢٤٥).

ومن أراد أن يقف على شيء من محاولات العلماء -رحمهم الله- في استلهاهم شيء من ذلك، فليقرأ ما كتبه العلامة الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره لهذه الآية الكريمة، والقاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ فإنه قد كتب نحوًا من ستين صفحة؛ وهو يتحدث عن نماذج عاجلها القرآن، وهَدَى لأقوم الطرق في حلِّها، أنتقي من كلامه ما له صلة مباشرة بتوضيح كلية هذه القاعدة، حيث يقول رَحِمَهُ اللهُ: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا يهدي للتي هي أقوم، أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعد لها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا - إن شاء الله تعالى - سنذكر جملاً وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم؛ بياناً لبعض ما أشارت إليه الآية الكريمة، تنبيهًا ببعضه على كله من المسائل العظام، والمسائل التي أنكرها الملحدون من الكفار، وطعنوا بسببها في دين الإسلام؛ لقصور إدراكهم عن معرفة حِكْمِها البالغة...»^(١) ثم سرد جملة من المسائل العقدية والاجتماعية.

دعنا نستعرض -بإجمال شديد- شيئًا من أنواع هذه الهدايات التي دل هدى القرآن للطريق الأقوم فيها:

«إنه يهدي للتي هي أقوم في ضبط التوازن بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله...

ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة: بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق

(١) أضواء البيان: (٣/ ١٧ - ٥٤).

التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من الوفاء، ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفرادًا وأزواجًا، وحكومات وشعوبًا، ودولًا وأجناسًا، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى، ولا تميل مع المودة والشنآن، ولا تصرفها المصالح والأغراض...

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها، والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها؛ فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووثام...^(١).

إذا تأملنا هذا الإطلاق في هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أدركت أنها آية تتجاوز في هدايتها حدود الزمان والمكان، وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة أو التي ستقوم بعد ذلك!

إنها قاعدة تقطع الطريق على جميع المنهزمين والمتخاذلين من أهل الإسلام أو المنتسبين له، أو من الزنادقة، الذين يظنون - لجهلهم - أن هذا القرآن إنما هو كتاب رقائق ومواعظ، ويعالج قضايا محدودة من الأحكام! أما القضايا الكبرى، كقضايا السياسة، والعلاقات الدولية، ونحوها، فإن القرآن ليس فيه ما يشفي في علاج هذه القضايا!!

وهذا الكلام - فضلاً عن كونه خطيراً وقد يؤدي إلى الكفر - فإنه سوء أدب مع الله! ذلك أن ربنا - وهو العليم الخبير - يعلم حين أنزل القرآن أن العباد سيقبلون على متغيرات كثيرة، وانفتاح، وعلاقات، ومستجدات، فلم يتركهم هملاً، بل حفظ

(١) ينظر: في ظلال القرآن (٤/ ٢٢١٥).

لهم هذا القرآن ليرجعوا إلى هداياته، وحفظ لهم سنة نبيه ﷺ لتكون شارحةً لما أجمل من قواعد القرآن، بل وجعل في السنة أحكاماً مستقلة، فمن أراد الهداية وجدها فيها، ومن كان في عينيه عشى، أو في قلبه عمى، فليَتَّهم نفسه، ولا يرمين نصوص الوحي بالنقص والقصور:

قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمِدٍ ويُنكرُ القَمَ طَعَمَ الماءِ مِنْ سَقَمٍ^(١)
وأختم ما أردتُ الإشارةَ إليه في الحديث عن هذه القاعدة القرآنية المحكمة:
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ بهذه القصة التي وقفتُ عليها، وهي أنني أذكر أن أحد العلماء لما طُلِبَ منه أن يلقي محاضرة حول هداية هذه القاعدة: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ قال في نفسه: وماذا سأقول عن هذه الآية في ساعة أو أكثر؟! فقررت أن أراجع كلام بعض المفسرين حولها، فبدأت بتفسير السعدي، فوجدته يقول: «يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته وأنه ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: أعدل وأعلى من العقائد، والأعمال، والأخلاق»^(٢).

فقررت أن أبدأ بالحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العقائد، فانتهى وقت المحاضرة ولم أنته من الحديث عن هذه الجزئية فقط! فكيف بمن أراد الحديث عن هداية القرآن للتي هي أقوم في أبواب العبادات؟ والمعاملات؟ والأحوال الشخصية؟ والحدود؟ والأخلاق والسلوك؟ فعلمت أن من يريد الحديث عن هذه القاعدة، فسيحتاج إلى عشرات المحاضرات.

هذا كتاب ربنا، يخبرنا فيه أنه يهدي للتي هي أقوم، فأين الباحثون عن هداياته؟ وأين الواردون حياضه؟ وأين الناهلون من معينه؟ وأين المهتدون بتوجيهاته؟.

(١) هذا البيت ضمن بردة البوصيري.

(٢) تفسير السعدي (٤٥٤).

وبعد: -أيها القارئ- فهذه هي القاعدة المتممة للخمسين، وبها ينتهي كلامنا على جملة من القواعد التي تضمنها كتاب الله العظيم، وتسليط الضوء على تلك القواعد، وإبراز بعض ما تضمنته من هدايات وتوجيهات ربانية، ومحاولة تنزيلها على واقع الناس؛ لأن من أجل صور عظمة القرآن: هو تجدد معانيه بتجدد أحوال الناس؛ ليبقى هاديًا ومقيماً لمن أراد الله هدايته واستقامته، ولهذا السبب -أيضاً- ختمت بذكر هذه القاعدة ليزداد يقين الإنسان -في ضوء ما تقدم ذكره من قواعد قرآنية- من أن هذا القرآن حقًا وقيناً يهدي للتي هي أقوم.

والحمد لله رب العالمين.

